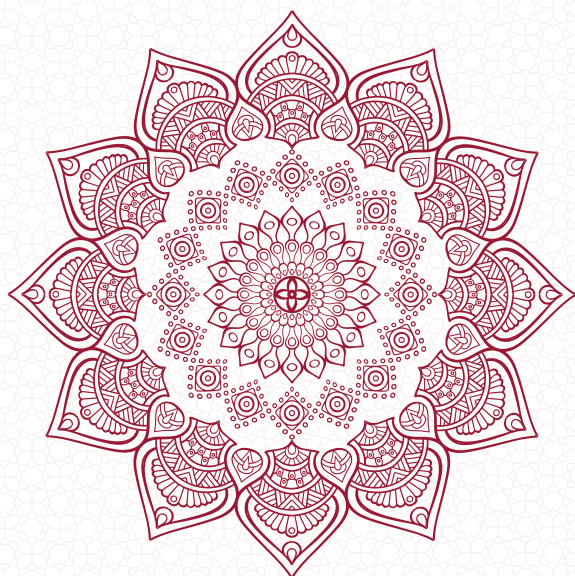


شرح منظومة

الأرجوزة المئوية في ذكر حال أشرف البرية

لفضيلة الشيخ:

أ. د. أحمد بن حمد الونيس



شرح الأرجوزة المنيّة في ذكر حال أشرف البرية

لابن أبي العز الحنفي رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى

برنامج دليل ١٤٤٧هـ

الدرس الثاني

إن الحمد لله .. أما بعد:

قال الناظم رحمه الله تعالى:

١١- ثُمَّ أَبُو طَالِبٍ الْعَمَّ كَفَلَ خِدْمَتَهُ ثُمَّ إِلَى الشَّامِ رَحَلَ

أي ثم بعد وفاة عبد المطلب جد النبي ﷺ، كفله عمه أبو طالب، وكان أبو طالب شقيق عبد الله والد النبي ﷺ، وقيل: إن عبد المطلب أوصى ابنه أبا طالب بكفالة النبي ﷺ ورعايته وتربيته بعد موته.

ثم سافر به عمه أبو طالب إلى الشام، وكان هذا السفر بعد اثني عشر سنة من ولادة النبي ﷺ، ولذا قال الناظم:

١٢- به، وَذَاكَ بَعْدَ عَامِ اثْنِي عَشَرَ وَكَانَ مِنْ أَمْرِ (بَحِيرًا) مَا اشْتَهَرَ

وكان في ذلك السفر من خبر بحيرا ما اشتهر عند أهل السيرة.

وبحيرا: بفتح الباء وكسر الحاء وسكون الياء، وقيل: بضم الباء وفتح الحاء، والألف في آخره مقصورة.

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قَالَ: «خَرَجَ أَبُو طَالِبٍ إِلَى الشَّامِ وَخَرَجَ مَعَهُ النَّبِيُّ ﷺ فِي أَشْيَاخٍ مِنْ قُرَيْشٍ، فَلَمَّا أَشْرَفُوا عَلَى الرَّاهِبِ هَبَطُوا فَحَلُّوا

رِحَالَهُمْ، فَخَرَجَ إِلَيْهِمُ الرَّاهِبُ وَكَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ يَمُرُّونَ بِهِ فَلَا يَخْرُجُ إِلَيْهِمْ وَلَا يَلْتَفِتُ». قَالَ: «فَهُمْ يَحُلُّونَ رِحَالَهُمْ، فَجَعَلَ يَتَخَلَّلُهُمُ الرَّاهِبُ حَتَّى جَاءَ فَأَخَذَ بِيَدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: هَذَا سَيِّدُ الْعَالَمِينَ، هَذَا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ، يَبْعَثُهُ اللَّهُ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ»، فَقَالَ لَهُ أَشْيَاخُ مِنْ قُرَيْشٍ: مَا عَلِمُكَ، فَقَالَ: إِنَّكُمْ حِينَ أَشْرَفْتُمْ مِنَ الْعَقَبَةِ لَمْ يَبَقْ شَجَرٌ وَلَا حَجَرٌ إِلَّا خَرَّ سَاجِدًا وَلَا يَسْجُدَانِ إِلَّا لِنَبِيِّ، وَإِنِّي أَعْرِفُهُ بِخَاتَمِ النُّبُوَّةِ أَسْفَلَ مِنْ غُضُرُوفِ كِتْفِهِ مِثْلَ التُّفَّاحَةِ، ثُمَّ رَجَعَ فَصَنَعَ لَهُمْ طَعَامًا، فَلَمَّا أَتَاهُمْ بِهِ وَكَانَ هُوَ فِي رِعْيَةِ الْإِبِلِ، قَالَ: أَرْسَلُوا إِلَيْهِ، فَأَقْبَلَ وَعَلَيْهِ غَمَامَةٌ تُظِلُّهُ، فَلَمَّا دَنَا مِنَ الْقَوْمِ وَجَدَهُمْ قَدْ سَبَقُوهُ إِلَى فِيءِ الشَّجَرَةِ، فَلَمَّا جَلَسَ مَالَ فِيءِ الشَّجَرَةِ عَلَيْهِ، فَقَالَ: انْظُرُوا إِلَيَّ فِيءِ الشَّجَرَةِ مَالَ عَلَيْهِ، قَالَ: فَبَيْنَمَا هُوَ قَائِمٌ عَلَيْهِمْ وَهُوَ يُنَاشِدُهُمْ أَنْ لَا يَذْهَبُوا بِهِ إِلَى الرُّومِ، فَإِنَّ الرُّومَ إِنْ رَأَوْهُ عَرَفُوهُ بِالصِّفَةِ فَيَقْتُلُونَهُ، فَالْتَفَتَ فَإِذَا بِسَبْعَةٍ قَدْ أَقْبَلُوا مِنَ الرُّومِ فَاسْتَقْبَلَهُمْ، فَقَالَ: مَا جَاءَ بِكُمْ؟ قَالُوا: جِئْنَا، إِنَّ هَذَا النَّبِيَّ خَارِجٌ فِي هَذَا الشَّهْرِ، فَلَمْ يَبَقْ طَرِيقٌ إِلَّا بُعِثَ إِلَيْهِ بِأُنَاسٍ وَإِنَّا قَدْ أَخْبَرْنَا خَبْرَهُ فَبُعِثْنَا إِلَى طَرِيقِكَ هَذَا، فَقَالَ: هَلْ خَلَفَكُمْ أَحَدٌ هُوَ خَيْرٌ مِنْكُمْ؟ قَالُوا: إِنَّمَا أَخْبَرْنَا خَبْرَهُ بِطَرِيقِكَ هَذَا. قَالَ: أَفَرَأَيْتُمْ أَمْرًا أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَقْضِيَهُ هَلْ يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ رَدُّهُ؟ قَالُوا: لَا، قَالَ: فَبَايَعُوهُ وَأَقَامُوا مَعَهُ قَالَ: أَنْشِدْكُمْ بِاللَّهِ أَكُنْكُمْ وَلِيِّهُ؟ قَالُوا: أَبُو طَالِبٍ، فَلَمْ يَزَلْ يُنَاشِدُهُ حَتَّى رَدَّهُ أَبُو طَالِبٍ وَبَعَثَ مَعَهُ أَبُو بَكْرٍ بِلَالًا وَزَوَّدَهُ الرَّاهِبُ مِنَ الْكَعْكِ وَالزَّيْتِ» رواه الترمذي ٣٦٢٠، وقال: «هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ لَا نَعْرِفُهُ إِلَّا مِنْ هَذَا الْوَجْهِ»

قال الذهبي في السيرة النبوية من تاريخ الإسلام ٥٠٣/١: (وهو حديث منكر جدا؛ وأين كان أبو بكر؟ كان ابن عشر سنين، فإنه أصغر من رسول الله ﷺ بسنتين ونصف؛ وأين كان بلال في هذا الوقت؟ فإن أبا بكر لم يشتره إلا بعد المبعث، ولم يكن ولد بعد ...)

لكن ذهب جماعة من أهل العلم إلى ثبوت هذه الحادثة، مع استنكار بعض ألفاظها.

قال الحافظ ابن حجر في الفتح ٧١٦ / ٨ عند كلامه على دلائل النبوة: (أول ذلك مطلقاً ما سمعته من بحيرا الراهب وهو عند الترمذي بإسناد قوي عن أبي موسى).

وقال أيضاً في الإصابة ٤٧٦ / ١: (وقد وردت هذه القصة بإسناد رجاله ثقات من حديث أبي موسى الأشعري أخرجهما الترمذي وغيره، ولم يسم فيها الراهب، وزاد فيها لفظة منكراً، وهي قوله: وأتبعه أبو بكر بلالا، وسبب نكارتها أن أبا بكر حينئذ لم يكن متأهلاً، ولا اشترى يومئذ بلالا. إلا أن يحمل على أن هذه الجملة الأخيرة مقتطعة من حديث آخر أدرجت في هذا الحديث. وفي الجملة هي وهم من أحد رواته).

وقال الألباني في صحيح الترمذي: صحيح، لكن ذكر بلال فيه منكر.

١٣- وَسَارَ نَحْوُ الشَّامِ أَشْرَفُ الْوَرَى فِي عَامِ خَمْسَةِ وَعِشْرِينَ أَذْكَرَا

١٤- لِأَمْنَا خَدِيجَةَ مُتَّجِرًا وَعَادَ فِيهِ رَابِحًا مُسْتَبْشِرًا

أي ولما بلغ النبي ﷺ الخامسة والعشرين من عمره سافر إلى الشام في تجارة لخديجة ؓ، على وجه المضاربة، فالمال من خديجة ؓ والعمل من النبي ﷺ، وعاد في ذلك العام من تجارته رابحاً مستبشراً.

وقوله (أشرف الورى) أي أشرف الخلق، وأفضلهم.

وقوله: (اذكرا) أي اذكر هذه الحادثة، والألف في آخر الكلمة للإطلاق.

وقوله: (لأمنا خديجة) هي أم المؤمنين خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب، فتلتقي في النسب مع النبي ﷺ في قصي بن

كلاب، فهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب.

ونَوَّنَ (خديجة) لضرورة الشعر، وإلا فهو اسم ممنوع من الصرف للعلمية والتأنيث.

١٥- فَكَانَ فِيهِ عَقْدُهُ عَلَيْهَا وَبَعْدَهُ إِفْضَاؤُهُ إِلَيْهَا

أي فكان في ذلك العام الذي رجع فيه النبي ﷺ من تجارته لخديجة رضي الله عنها، عقد النكاح عليها، وكان عمره خمسةً وعشرين سنة، (وبعده) ثم بعد ذلك (إفضاؤه إليها) أي دخوله بها.

وقال البلاذري في أنساب الأشراف ٩٨ / ١: (وتزوج رسول الله ﷺ خديجة وهو ابن خمس وعشرين سنة، وهي ابنة أربعين سنة. وذلك الثبت عند العلماء. ويقال إنه تزوجها وهي ابنة ست وأربعين سنة، وهو ابن خمس وعشرين سنة. ويقال: تزوجها وهو ابن ثلاث وعشرين سنة، وهي ابنة ثمان وعشرين سنة).

- ١٦- وَوُلِدَهُ مِنْهَا خَلَاةُ إِبْرَاهِيمَ فَلَأَوَّلُ الْقَاسِمِ حَارَ التَّكْرِيمِ
 ١٧- وَزَيْنَبُ رُقِيَّةٌ وَفَاطِمَةٌ وَأُمُّ كُلْثُومٍ لَهْنٌ خَاتِمَةٌ
 ١٨- وَالطَّيِّبُ الطَّاهِرُ عَبْدُ اللَّهِ وَقِيلَ كُلُّ اسْمٍ لِفَرْدٍ زَاهِي
 ١٩- وَالْكُلُّ فِي حَيَاتِهِ ذَاقُوا الْحِمَامَ وَبَعْدَهُ فَاطِمَةٌ بِنَصْفِ عَامٍ

في هذه الأبيات ذكر الناظم أولاد النبي ﷺ، وكلهم من أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها سوى إبراهيم فإنه من سُرَّيته مارية القبطية رضي الله عنها.

وهذا بالإجماع، فقد حكى أبو السعادات ابن الأثير في جامع الأصول ١٠٧/١٢ إجماع العلماء على أن جميع أولاده ﷺ من خديجة رضي الله عنها غير إبراهيم فإنه من مارية رضي الله عنها.

روى البخاري ٣٨١٨ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: مَا غَرْتُ عَلَى أَحَدٍ مِنْ نِسَاءِ النَّبِيِّ ﷺ مَا غَرْتُ عَلَى خَدِيجَةَ، وَمَا رَأَيْتُهَا، وَلَكِنْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُكْثِرُ ذِكْرَهَا، وَرُبَّمَا ذَبَحَ الشَّاةَ ثُمَّ يَقْطَعُهَا أَغْضَاءً، ثُمَّ يَبْعُثُهَا فِي صَدَائِقِ خَدِيجَةَ، فَرُبَّمَا قُلْتُ لَهُ: كَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِي الدُّنْيَا امْرَأَةٌ إِلَّا خَدِيجَةُ، فَيَقُولُ «إِنَّهَا كَانَتْ، وَكَانَتْ، وَكَانَتْ لِي مِنْهَا وَلَدٌ»

ومعنى (كانت وكانت) أي يذكر صفاتها وفضائلها رضي الله عنها.

وقوله: (وَوُلِدَهُ) الولد اسم يجمع الواحد والكثير والذكر والأنثى، وَوَلَدُ الرجل وَوُلْدُهُ بمعنى واحد، وقد يكون الولد جمع الولد، مثل أسد جمع أسد^(١).

(١) ينظر: تهذيب اللغة للأزهري ١٤/١٢٥، والصحاح للجوهري ٢/٥٥٣، ٥٥٤.

وأولاده سبعة عليه السلام، ثلاثة أبناء، وأربع بنات، وهم كما ذكرهم الناظم:

١- القاسم، وهو أول أبنائه، قال الناظم (فالأول القاسم حاز التكريم) وذلك بأن تكنى به النبي عليه السلام، فهو أبو القاسم عليه الصلاة والسلام.

قال القرطبي في المفهم ٦/ ٣١٣: (وأجمعوا أنها - أي خديجة عليها السلام - ولدت له ابناً يُسمّى: القاسم، وبه كان يكنى ... ومات القاسم بمكة صغيراً. قيل: إنه بلغ إلى أن مشى، وقيل: لم يعيش إلا أياماً يسيرة).

٢- زينب عليها السلام، وهي أكبر بناته عليها السلام، تزوجها أبو العاص بن الربيع عليه السلام.

٣- رُقِيّة، تزوجها عثمان عليه السلام.

٤- فاطمة، تزوجها علي عليه السلام.

٥- أم كلثوم، تزوجها عثمان بعد وفاة رقية عليها السلام.

قال القرطبي في المفهم ٦/ ٣١٣: (وأجمع أهل النقل: أنها ولدت له أربع بنات كلهن أدركن الإسلام، وأسلمن، وهاجرن: زينب، وفاطمة، ورقية، وأم كلثوم. وأجمعوا أنها ولدت له ابناً يُسمّى: القاسم، وبه كان يكنى)

وقال ابن عبد البر في الاستيعاب ٤/ ١٨٩٣: (والذي تسكن إليه النفس على ما تواترت به الأخبار في ترتيب بنات رسول الله عليه السلام أن زينب الأولى، ثم الثانية رقية، ثم الثالثة أم كلثوم، ثم الرابعة فاطمة الزهراء).

٦- عبد الله، ويسمى الطيب والطاهر، اسمان لعبد الله، وقيل: كل اسم من هذه الثلاثة وهي عبد الله والطيب والطاهر (لفرد) أي اسم لولد، فيكونون ثلاثة أولاد، (زاهي) أي حسن المنظر.

٧- إبراهيم: وهو أصغرهم.

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وُلِدَ لِي اللَّيْلَةُ غُلَامٌ، فَسَمَّيْتُهُ بِاسْمِ أَبِي إِبْرَاهِيمَ» رواه مسلم ٢٣١٥.

وتوفي صغيراً، ولما مات قال النبي ﷺ: «تَدَمَّعُ الْعَيْنُ وَيَحْزَنُ الْقَلْبُ، وَلَا نَقُولُ إِلَّا مَا يَرْضَى رَبَّنَا، وَاللَّهِ يَا إِبْرَاهِيمُ إِنَّا بِكَ لَمَحْزُونُونَ» رواه مسلم ٢٣١٥.

وعن البراء رضي الله عنه، قَالَ: لَمَّا تُوفِّيَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ لَهُ مُرْضِعًا فِي الْجَنَّةِ» رواه البخاري ١٣٨٢.

وَعَنْ عَمْرِو بْنِ سَعِيدٍ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: «مَا رَأَيْتُ أَحَدًا كَانَ أَرْحَمَ بِالْعِيَالِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ»، قَالَ: «كَانَ إِبْرَاهِيمُ مُسْتَرَضِعًا لَهُ فِي عَوَالِي الْمَدِينَةِ، فَكَانَ يَنْطَلِقُ وَنَحْنُ مَعَهُ فَيَدْخُلُ الْبَيْتَ وَإِنَّهُ لَيَدَّخُنُ، وَكَانَ ظُئْرُهُ قَيْنًا، فَيَأْخُذُهُ فَيَقْبُلُهُ، ثُمَّ يَرْجِعُ» قَالَ عَمْرُو: فَلَمَّا تُوفِّيَ إِبْرَاهِيمُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ إِبْرَاهِيمَ ابْنِي وَإِنَّهُ مَاتَ فِي الثَّدِي وَإِنَّ لَهُ لَظْئَرَيْنِ تُكْمَلَانِ رَضَاعَهُ فِي الْجَنَّةِ» رواه مسلم ٢٣١٦.

(وإنه مات في الثدي) معناه مات وهو في سن رضاع الثدي أو في حال تغذية بلبن الثدي (وإن له لظئرين) الظئر هي المرضعة ولد غيرها، ومعنى (تكملان رضاعه في الجنة) أي تتمانه سنتين فإنه توفي وله ستة عشر شهراً أو سبعة عشر فترضاعه بقية السنتين فإنه تمام الرضاعة بنص القرآن ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ﴾.

ثم قال الناظم: (والكل في حياته ذاقوا الحمام) أي كلهم ماتوا في حياة النبي ﷺ، إلا فاطمة رضي الله عنها، والحمام: قَدَّرَ الْمَوْتَ ^(٢).

(١) ينظر: شرح مسلم للنووي ٧٦/١٥.

(٢) مختار الصحاح (ح م م).

وبعد وفاة النبي ﷺ بنصف عام أي ستة أشهر توفيت ابنته فاطمة رضي الله عنها، في السنة الحادية عشرة من الهجرة.

فعن عائشة رضي الله عنها أنها أخبرت أن فاطمة رضي الله عنها (عَاشَتْ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ سِتَّةَ أَشْهُرٍ)، رواه البخاري ٣٠٩٣، ومسلم ١٧٥٩.

فائدة:

روى ابن السني في عمل اليوم والليلة ٤١٧ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: «أَسْقَطْتُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ، فَسَمَّاهُ عَبْدَ اللَّهِ، وَكُنَّانِي بِأُمِّ عَبْدِ اللَّهِ».

قال عنه ابن الجوزي في الموضوعات ٩ / ٢: (هَذَا حَدِيثٌ مَوْضُوعٌ).

وقال ابن القيم في تحفة المودود ص ١٣٤: (وَأَذِنَ النَّبِيُّ ﷺ لِعَائِشَةَ أَنْ تُكْنِيَ بِأُمِّ عَبْدِ اللَّهِ، وَهُوَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزَّبِيرِ، وَهُوَ ابْنُ أُخْتِهَا أَسْمَاءَ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ، هَذَا هُوَ الصَّحِيحُ، لَا الْحَدِيثَ الَّذِي رُوِيَ أَنَّهَا أَسْقَطَتْ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ سَقَطًا فَسَمَّاهُ عَبْدُ اللَّهِ وَكُنَّاها بِهِ، فَإِنَّهُ حَدِيثٌ لَا يَصَحُّ).

٢٠ - وَبَعْدَ خَمْسٍ وَثَلَاثِينَ حَضَرَ بُنْيَانَ بَيْتِ اللَّهِ لَمَّا أَنْ دَثَرَ

أي وبعد خمس وثلاثين سنة من ميلاده ﷺ حضر عليه الصلاة والسلام بنيان الكعبة المشرفة بعد أن انهدمت، ومعنى (دَثَرَ) أي دَرَسَ.

٢١ - وَحَكَّمُوهُ وَرَضُوا بِمَا حَكَّمَ فِي وَضْعِ ذَاكَ الْحَجَرِ الْأَسْوَدِ ثُمَّ

فحكّمه قريش في مَنْ يَضَعُ الْحَجَرَ الْأَسْوَدَ فِي مَكَانِهِ الْمَعْرُوفِ، وَرَضُوا بِحُكْمِهِ فِي ذَلِكَ.

وقوله: (ثُمَّ) ظرف مكان، أي هناك، في مكانه الموجود فيه الآن.

ويدل لهذه الحادثة عدة أحاديث، منها:

عن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنه، قَالَ: لَمَّا بُنِيَتِ الْكَعْبَةُ، ذَهَبَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم وَعَبَّاسٌ يُنْقِلَانِ الْحِجَارَةَ، فَقَالَ عَبَّاسٌ لِلنَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم: اجْعَلْ إِزَارَكَ عَلَى رَقَبَتِكَ يَقِيكَ مِنَ الْحِجَارَةِ، فَخَرَّ إِلَى الْأَرْضِ وَطَمَحَتْ عَيْنَاهُ إِلَى السَّمَاءِ، ثُمَّ أَفَاقَ، فَقَالَ: «إِزَارِي إِزَارِي فَشَدَّ عَلَيْهِ إِزَارَهُ» رواه البخاري ٣٨٢٩، ومسلم ٣٤٠.

(طمحت) ارتفعت (إزاري إزاري) أعطوني إياه.

وعن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ السَّائِبِ رضي الله عنه قَالَ: كُنْتُ فِيْمَنْ بَنَى الْبَيْتَ ... وَإِنْ قُرَيْشًا اخْتَلَفُوا فِي الْحَجَرِ حِينَ أَرَادُوا أَنْ يَضَعُوهُ حَتَّى كَادَ أَنْ يَكُونَ بَيْنَهُمْ قِتَالٌ بِالسُّيُوفِ، فَقَالَ: اجْعَلُوا بَيْنَكُمْ أَوَّلَ رَجُلٍ يَدْخُلُ مِنَ الْبَابِ، فَدَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فَقَالُوا: هَذَا الْأَمِينُ، وَكَانُوا يُسَمُّونَهُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ الْأَمِينَ، فَقَالُوا: يَا مُحَمَّدُ، قَدْ رَضِينَا بِكَ، فَدَعَا بِثَوْبٍ فَبَسَطَهُ وَوَضَعَ الْحَجَرَ فِيهِ، ثُمَّ قَالَ لِهَذَا الْبَطْنِ، وَلِهَذَا الْبَطْنِ -غَيْرَ أَنَّهُ سَمَّى بَطُونًا-: لِيَأْخُذَ كُلُّ بَطْنٍ مِنْكُمْ بِنَاحِيَةٍ مِنَ الثَّوْبِ، فَفَعَلُوا، ثُمَّ رَفَعُوهُ، وَأَخَذَهُ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فَوَضَعَهُ بِيَدِهِ. رواه الإمام أحمد ١٥٥٠٤، والحاكم ١٦٨٣، واللفظ له، وقال الحاكم: «هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ، وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ، وَلَهُ شَاهِدٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِهِ»، وقال محققو المسند: إسناده صحيح. وذكره الألباني في صحيح السيرة النبوية ص ٤٥.

وروى عبد الرزاق ٩١٠٦ في المصنف عن أبي الطفيل في قصة بناء قريش الكعبة قال: (وَكَانَ بَيْنَ الْكَعْبَةِ وَبَيْنَ مَا أُنْزِلَ اللَّهُ عَلَيْهِ خَمْسُ سِنِينَ)، وقال الذهبي في تاريخ الإسلام ١/ ٥١٤: هذا حديث صحيح.

٢٢ - وَبَعْدَ عَامٍ أَرْبَعِينَ أُرْسِلَا فِي يَوْمِ الْاِثْنَيْنِ يَقِينًا فَاُنْقَلَا
٢٣ - فِي رَمَضَانَ أَوْ رَبِيعِ الْأَوَّلِ وَسُورَةُ اقْرَأْ أَوَّلَ الْمُنَزَّلِ

أي وبعد مضي أربعين عاما من مولد النبي ﷺ أرسله الله عز وجل إلى الناس كافة، والألف في «أرسلا» للإطلاق.

فعن أنس رضي الله عنه في وصفه النبي ﷺ قال: (أُنْزِلَ عَلَيْهِ وَهُوَ ابْنُ أَرْبَعِينَ، فَلَبِثَ بِمَكَّةَ عَشْرَ سِنِينَ (١) يُنْزَلُ عَلَيْهِ، وَبِالْمَدِينَةِ عَشْرَ سِنِينَ) رواه البخاري ٣٥٤٧، ومسلم ٢٣٤٧، ولفظ مسلم: (بَعَثَهُ اللَّهُ عَلَى رَأْسِ أَرْبَعِينَ سَنَةً).

وكان مبعثه في يوم الاثنين، فقد روى مسلم (١١٦٢) عَنْ أَبِي قَتَادَةَ الْأَنْصَارِيِّ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ سِئِلَ عَنْ صَوْمِ الْاِثْنَيْنِ؟ فَقَالَ: «فِيهِ وُلِدْتُ، وَفِيهِ أُنْزِلَ عَلَيَّ»، وفي لفظ له: «ذَاكَ يَوْمٌ وُلِدْتُ فِيهِ، وَيَوْمٌ بُعِثْتُ - أَوْ أُنْزِلَ عَلَيَّ فِيهِ».

وقد حكى ابن كثير أنه لا خلاف بين العلماء في أنه عليه الصلاة والسلام أوحى إليه يوم الاثنين (٢).

وكانت بعثته ﷺ في شهر رمضان، أو في شهر ربيع الأول، على قولين لأهل السيرة.

وذكر ابن كثير (٣) أن المشهور أنه بعث عليه الصلاة والسلام في شهر رمضان، واستدل لهذا القول بقول الله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ﴾

(١) أي بعد الأمر بالجهر بالدعوة وبعد أن حمى الوحي وتتابع.

(٢) ينظر: السيرة النبوية ١/ ٣٩٢.

(٣) ينظر: السيرة النبوية ١/ ٣٩٢.

واستدل للقول الثاني بما روى ابن أبي شيبه عن جابر وابن عباس رضي الله عنهما قالاً: ولد رسول الله ﷺ عام الفيل يوم الاثنين الثاني عشر من ربيع الأول، وفيه بعث، وفيه عرج به إلى السماء، وفيه هاجر، وفيه مات. لكن قال ابن كثير ٩٣ / ٢ بعده: فيه انقطاع.

قال الحافظ في الفتح ٩ / ٤: (فيمكن أن يجمع بينه وبين المشهور بوجه آخر وهو أنه بعث على رأس الأربعين، فكانت مدة وحي المنام ستة أشهر إلى أن نزل عليه الملك في شهر رمضان).

وأول ما أنزل الله تعالى عليه الخمس الآيات الأولى من سورة اقرأ، قال الله تعالى: (اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم، الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم).

فعن عائشة رضي الله عنها قالت: كَانَ أَوَّلُ مَا بُدِيَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّادِقَةُ فِي النَّوْمِ، فَكَانَ لَا يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ، ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلَاءُ، فَكَانَ يَخْلُو بَغَارِ حِرَاءٍ يَتَحَنَّنُ فِيهِ - وَهُوَ التَّعَبُّدُ - اللَّيَالِي أُولَاتِ الْعَدَدِ، قَبْلَ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى أَهْلِهِ وَيَتَزَوَّدَ لِدَلِكِ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ فَيَتَزَوَّدُ لِمِثْلِهَا، حَتَّى فَجِئَهُ الْحَقُّ وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ، فَجَاءَهُ الْمَلَكُ، فَقَالَ: اقْرَأْ، قَالَ: «مَا أَنَا بِقَارِئٍ»، قَالَ: فَأَخَذَنِي، فَغَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: اقْرَأْ، قُلْتُ: «مَا أَنَا بِقَارِئٍ»، فَأَخَذَنِي، فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: اقْرَأْ، قُلْتُ: «مَا أَنَا بِقَارِئٍ»، فَأَخَذَنِي، فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ① خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ② اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ③ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ④ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ⑤﴾ ... رواه البخاري ٦٩٨٢، ومسلم ١٦٠.

وأما ما رواه عن أبي سلمة قال: سَأَلْتُ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ أَيُّ الْقُرْآنِ أُنْزِلَ أَوَّلُ؟ فَقَالَ: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾... رواه البخاري ٤٩٢٤، ومسلم ١٦١.

فأجيب عنه بأن سورة المدثر هي أول ما نزل على النبي ﷺ بعد فترة الوحي، ويدل لذلك ما جاء في رواية عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ يُحَدِّثُ عَنْ فِتْرَةِ الْوَحْيِ، فَقَالَ فِي حَدِيثِهِ: «فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِي إِذْ سَمِعْتُ صَوْتًا مِنَ السَّمَاءِ فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فَإِذَا الْمَلَكُ الَّذِي جَاءَنِي بِحِرَاءٍ جَالِسٌ عَلَى كُرْسِيِّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَجِئْتُ مِنْهُ رُعبًا، فَرَجَعْتُ فَقُلْتُ: زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي، فَدَثَرُونِي، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ إِلَى ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾. رواه البخاري ٤٩٢٥، ومسلم ١٦١، زاد مسلم (ثم تتابع الوحي).

(فجئت) أي فرغت ورعبت.

ويمكن أن يحمل قول جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على أن ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ هي أول ما نزل للرسالة، أما أول ما نزل للنبوة فهي ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾.

٢٤ - ثُمَّ الْوُضُوءُ وَالصَّلَاةُ عَلَّمَهُ جَبْرِيلُ وَهِيَ رَكْعَتَانِ مُحْكَمَتَانِ

أي ثم بعد نزول الوحي عليه علم جبريل عليه السلام النبي ﷺ الوضوء والصلاة.

قال ابن بطال في شرحه على البخاري ٤٦٩/١: (معلوم عند جميع أهل السير أن الصلاة فرضت بمكة، والغسل من الجنابة، وأنه لم يصل قط إلا بوضوء مثل وضوئه بالمدينة، ونزلت آية الوضوء، ليكون فرضها التقدم متلوًا في التنزيل).

وَعَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ، عَنْ أَبِيهِ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم: «أَنَّ جَبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَتَاهُ فِي أَوَّلِ مَا أُوحِيَ إِلَيْهِ، فَعَلَّمَهُ الْوُضُوءَ وَالصَّلَاةَ، فَلَمَّا فَرَغَ مِنَ الْوُضُوءِ، أَخَذَ غُرْفَةً مِنْ مَاءٍ، فَنَضَحَ بِهَا فَرْجَهُ» رواه الإمام أحمد ١٧٤٨٠، وانظر الصحيحة ٨٤١.

وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: إِنْ الْمَلَأَ مِنْ قَرِيشٍ اجْتَمَعُوا فِي الْحَجَرِ، فَتَعَاقَدُوا بِالسَّلَاتِ وَالْعُزَى وَمَنَاةَ الثَّالِثَةِ الْأُخْرَى وَنَائِلَةَ وَإِسَافَ: لَوْ قَدْ رَأَيْنَا مُحَمَّدًا لَقَدْ قَمْنَا إِلَيْهِ قِيَامَ رَجُلٍ وَاحِدٍ فَلَمْ نَفَارِقْهُ حَتَّى نَقْتَلَهُ، فَأَقْبَلَتْ ابْنَتُهُ فَاطِمَةُ تَبْكِي، حَتَّى دَخَلَتْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، فَقَالَتْ: هَؤُلَاءِ الْمَلَأَ مِنْ قَرِيشٍ قَدْ تَعَاقَدُوا عَلَيْكَ، لَوْ قَدْ رَأَوْكَ لَقَدْ قَامُوا إِلَيْكَ فَقَتَلُوكَ، فَلَيْسَ مِنْهُمْ رَجُلٌ إِلَّا قَدْ عَرَفَ نَصِيْبَهُ مِنْ دَمِكَ، فَقَالَ: «يَا بُنَيَّةُ، أَرِنِي وَضُوءًا»، فَتَوَضَّأَ، ثُمَّ دَخَلَ عَلَيْهِمُ الْمَسْجِدَ، فَلَمَّا رَأَوْهُ قَالُوا: هَا هُوَ ذَا، وَخَفَضُوا أَبْصَارَهُمْ، وَسَقَطَتْ أَذْقَانُهُمْ فِي صُدُورِهِمْ، وَعَقَرُوا فِي مَجَالِسِهِمْ، فَلَمْ يَرْفَعُوا إِلَيْهِ بَصَرًا، وَلَمْ يَقُمْ إِلَيْهِ مِنْهُمْ رَجُلٌ، فَأَقْبَلَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم حَتَّى قَامَ عَلَى رُؤُوسِهِمْ، فَأَخَذَ قَبْضَةً مِنَ التُّرَابِ، فَقَالَ: «شَاهَتِ الْوُجُوهُ»، ثُمَّ حَصَبَهُمْ بِهَا، فَمَا أَصَابَ رَجُلًا مِنْهُمْ مِنْ ذَلِكَ الْحَصَى حِصَاةً إِلَّا قَتِلَ يَوْمَ بَدْرٍ كَافِرًا. رواه الإمام أحمد ٢٧٦٢، وقال أحمد شاكر: إسناده صحيح.

قال ابن رجب في فتح الباري ٢/ ٣٠٤: (والأحاديث الدالة على أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يصلي بمكة قبل الإسراء كثيرة).

وأول ما أنزل عليه سورة: ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ وفي آخرها: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى﴾ إلى قوله: ﴿كَلَّا لَا تَطِعُهُ وَأَسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾.

وقد نزلت هذه الآيات بسبب قول أبي جهل: لئن رأيت محمدا ساجدا عند البيت لأطأن على عنقه.

فصلاته صلى الله عليه وسلم قبل الإسراء ثابتة، لكن اختلف أهل العلم في صفة الصلاة قبل الإسراء، فقليل: ركعتان ركعتان، وقيل غير ذلك.

ثم فرضت عليه الصلوات الخمس ليلة الإسراء والمعراج.
والحمد لله رب العالمين.